أئمة الخفاء فى اليهودية

السامرى
شبتاى تسفى
عنان بن داوود

السامرى

بعد ثلاثين عاما من الفراق والألم والصبر التقى سيدنا يعقوب.. ولده يوسف عليه السلام وهو عزيز لمصر قائما على خزائنها.. ومنقذها من المجاعة. كان عدد أهل يوسف يوم هذا اللقاء من آل يعقوب الوافدين «تسعين » مابين امرأة وطفل ورجل.. عاشوا فى رعاية نبى الله يوسف فأقاموا فى أرض جساس بالشرقية الآن.. أقاموا فى منزلة آمنة كريمة.. وعاش سيدنا يعقوب بين أبنائه أربعة وعشرين عاما فى مصر.. وعندما شعر بدنو أجله جمع أبناءه الإثنى عشر وأوصاهم بعبادة الله الواحد الأحد وقال لهم «يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ» (البقرة ١٣٢) ومات يعقوب بعد أن كان قد أوصى ولده يوسف بأن يحمل جسده إلى الأرض المقدسة فى فلسطين ويدفنه بجوار أبيه إسحاق وجده إبراهيم الخليل عليهم السلام جميعا.

وسمع نبى الله يوسف وصية أبيه.. فوضع جثمانه فى صندوق من خشب شجر (الساج) وخرج فى موكب كبير حتى دفنه بنفسه فى الخليل بفلسطين كوصيته وعاش يوسف عليه السلام بعد موت أبيه يعقوب ثلاثة وعشرين عاما فى رفعة ونعيم أعزه الله بهما بعد أن لاقى أهوالا ومصائب تنفطر لها القلوب منذ ألقاه إخوته فى البئر وإنقاذه على يد قافلة من الغرباء ورحيله معهم إلى مصر وبيعه فيها عبدا رقيقا فى سوق العبيد حتى اشتراه عزيز مصر «قيطفور».. ثم محنته مع امرأة العزيز ومقاومته لها.. ثم إلقائه فى ظلام السجن سنين طويلة.. حتى منّ الله عليه بالخروج من السجن بعد أن فسر حلم الملك.. وأنقذ مصر والعالم من سوء المجاعة .. ثم لقائه مع إخوته.. واعتذارهم له..

وتوفى الله يوسف عليه السلام عن عمر مائة وعشرين عاما وكان الله قد وهبه ولدين هما إفرائيم ومنشا.. وإفرائيم هو جد يوشع فتى موسى ولما حضر يوسف

عليه السلام الموت.. جمع إليه قومه من بنى يعقوب وأوصى أخاه يهوذا برعايتهم من بعده فى مصر.. خاصة أنه كان يعلم أن أهله من آل يعقوب يعتنقون دين التوحيد وعبادة الله الواحد الأحد وهو الدين الذى يخالف ما يعتنقه الفرعون الحاكم فى ذلك الوقت.. وهو ابن الفرعون الذى كانت قصة سيدنا يوسف معه.

فقد مات الفرعون الذى كان فى زمن سيدنا يوسف بعد أن دعاه يوسف إلى عبادة الله الواحد الأحد.. فآمن بالحق بعد أن شاهد بنفسه تحقق تفسير رؤياه التى نبأه بها يوسف.. وترك ذلك الفرعون عبادة الأوثان.. وشهد قدوم آل يعقوب إلى مصر.. ومات مؤمنا موحدا وترك الحكم لشقيقه الذى لم يستجب لدعوة يوسف إلى الإيمان بالله عندما دعاه واختار عبادة الأوثان ومات يوسف والفرعون الحاكم كافر وثنى.. وتوالى من بعده حكم الفراعين الذين ظلموا وطغوا وتجبروا على الأرض.. ولم يكتفوا بأنهم يعبدون الآلهة من دون الله ولكنهم رأوا فى أنفسهم مايؤهلهم إلى أن يتحولوا هم أنفسهم إلى آلهة.

وقال.. فرعون الذى عرف فيما بعد بفرعون موسى «أنا ربكم الأعلى»: بعد أن طغى طغيانا عظيما وفرض عبادته على قومه من المصريين.. وتفنن فى تعذيب «آل يعقوب» أى بنى إسرائيل الذين بقوا على دين يوسف وآبائه يعقوب وإسحاق وإبراهيم.. وهو مازاد فى غيظ وغضب فرعون منهم فعزلهم وفرق بينهم وبين المصريين فأذل بنى يعقوب وساقهم ألوانا من العذاب والاضطهاد وشعر «بنو إسرائيل» بالذل والهوان بعد تعرضهم للأذى فى حياة مرهقة شديدة الصعوبة.. وكان ازدياد الأزمة واشتدادها بداية ومقدمة لتغيير قوى وشامل يعصف بالظلم والظالم ويظهر دين الله على الكفر والشرك وفى خضم تلك الأحداث الهائلة التى أظهر الله سبحانه وتعالى معجزاته الخارقة على يد نبيه موسى عليه السلام الذى واجه عقبات ومصاعب وأحداث تفوق طاقة البشر جميعا وكان مما واجهه «السامرى» فى أحداث لها دلالات هامة تفصح عن طبيعة وحقيقة كثيرين من «بنى إسرائيل».

فالسامرى استطاع أن يجمع مابين الكفر والتحريض عليه فى آن واحد.. فهو شخصية شديدة التعقيد والذكاء أيضا.. يمتلك الفراسة وقوة الملاحظة والجرأة الكبيرة والنفس الشديدة المليئة بالكفر وظلام الضلال.

مما أحاط شخصية السامرى بهالة من الغموض الأسطورى فى بدايته ونهايته أيضا.. فرغم قلة ما كتب عنه وما تم ذكره فيه إلا أن الدور الذى لعبه السامرى كان شديد الأهمية.. رغم أنه لم يستمر أكثر من أيام معدودة.. إلا أنه يعد من أهم وأشهر الشخصيات التى كشفت طبيعة بنى إسرائيل وتعمقت فى فهم تركيباتهم النفسية.. فالسامرى كان بمثابة أداة اختبار لبنى إسرائيل.. فالدور الذى لعبه والمغامرة التى قام بها كانت نتيجتها تحول عدد كبير من بنى إسرائيل من الإيمان إلى الكفر بعد أيام قليلة من مشاركتهم ومشاهدتهم لمعجزة إلهية هائلة كانوا هم أنفسهم جزءا منها رأوها بأعينهم وعاشوا لحظاتها ونجوا بسببها من الوقوع فى أيدى فرعون وكانت سببا فى إنقاذ حياتهم وحصولهم على الحرية وتخليصهم من الذل والهوان ورغم ذلك نجح السامرى فى التلاعب بهم وهو يعلم جيدا مدى ضعف إيمانهم وجحود قلوبهم فهو حرض وهم استجابوا.. وصنع لهم إلها فعبدوه.. وما قام به هو ماكانوا هم يرغبون به فعلا.

ولكن من هو السامرى؟ قيل إنه كان رجلا من بنى إسرائيل وكان يحترف السحر واسمه موسى بن ظافر بن سامر.. وسمى موسى السامرى نسبة إلى جده سامر.. ورغم الدور الهائل الذى قام به السامرى إلا أنه لم يأت ذكره فى أثناء دعوة نبى الله موسى لفرعون وقومه ولم يظهر فى كل الأحداث التى مرت على بنى إسرائيل إلا قبل لحظات قليلة من عبورهم البحر فى المعجزة العظيمة وذكر بوضوح بعد أيام من شق البحر ونجاة بنى إسرائيل بقيادة موسى وهارون عليهما السلام.

وقبل هذه الأيام القليلة كان نبى الله موسى قد قضى ثلاثين عاما فى دعوة فرعون وقومه.. وكانوا يرون الآيات والمعجزات التى تؤكد صدق ماجاء به وخاصة بعد الأحداث المفجعة التى حلت بالمصريين من مجاعة وجفاف بعد إصرار فرعون على الكفر والعناد وتعذيبه للسحرة الذين آمنوا مما دفعه إلى تعذيبهم بوحشية ازداد هو بعدها عنادا وتكبرا وبالغ فى اضطهاد قوم موسى والمؤمنين معه.. فأمر الله نبيه موسى بأن يخبر فرعون وقومه بأن الله تعالى سيوقع بهم العذاب.. فسلط الله عليهم أنواعا من البلاء فابتلاهم سبحانه بالقحط والجدب.. وجفاف الأرض وانقطاع المطر ونقص الثمرات حتى أن النخلة كانت لاتحمل إلا ثمرة تمر

واحدة.. واستمر هذا الابتلاء لفترة ولم يتراجع فرعون وقومه وكان الله يختبرهم بأن يرفع عنهم هذا البلاء لفترة لعلهم يتراجعون ولكن النتيجة كانت ازدياد الأمر سوءا.. فعندما كان الخير يعم كان فرعون يعزو الأمر لنفسه.. فيعود الابتلاء ليحاصرهم مرة أخرى.. ووسط كل هذا العذاب والمعاناة لم يلن قلب فرعون للإيمان بالله ولم يتراجع عن كفره وظلمه وزاد على هذا ماقاله لموسى عليه السلام بأنه مهما يأتيهم من آيات فلن يؤمنوا به أبدا.. واستحق فرعون وقومه عذاب الله الذى أرسل عليهم الطوفان فأغرقتهم الأمطار الغزيرة وأتلفت محاصيلهم وهدمت منازلهم واستمرت بلا انقطاع فأسرع بعض من آل فرعون إلى موسى يتضرعون إليه ويطلبون منه أن يدعو الله ليرفع عنهم البلاء مقابل أن يؤمنوا بدعوته ويرسلوا معه بنى إسرائيل..

وجاء هذا المعنى فى كتاب الله تعالى « يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» (الأعراف ١٣٤).

فدعا موسى الله تعالى.. فرفع عنهم عذاب الأمطار المنهمرة.. وانتفعت الأرض الجدباء بالأمطار المنهمرة وبدأت بشائر الخير فى الظهور.. وانتظر سيدنا موسى عهود الإيمان من فرعون وقومه.. الذين ماكادوا يشعرون بعودة الحياة إلى طبيعتها حتى عادوا مرة أخرى لمعاداة سيدنا موسى وعدم الاعتراف بدعوته.. ومرة أخرى عاد إليهم العقاب فى شكل جديد ومختلف فلقد أرسل الله عليهم «الجراد» فأكل الزرع كله وقضى على المحاصيل والثمرات وكان أشبه بالأسقف الطائرة يغطى الفضاء كله فيلقى بعتمة دائمة لافرق فيها مابين الليل والنهار.. ولم يجد قوم فرعون حلا سوى اللجوء إلى نبى الله موسى وتكرار الوعد القديم.. فدعا موسى الله فرفع عنهم عذاب «الجراد».. لعلهم يصدقون فى وعودهم.. وكعادتهم لم ينفذوا وعدهم الذى قطعوه على أنفسهم لموسى عليه السلام.. فأرسل الله عليهم عذابا آخر.. فسلط عليهم «القمل» الذى كان يدخل بين ثيابهم وجلودهم ويسبب لهم آلاما هائلة.. وكالمعتاد.. لجأوا إلى سيدنا موسى للدعاء مع وعد منهم بالإيمان.. واستجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء نبيه موسى عليه السلام ورفع عنهم العذاب.. وككل مرة لم يفوا بعهدهم ولم يؤمنوا بالله الواحد الأحد فأرسل الله عليهم نوعا

جديدا من العذاب كان على هيئة الضفادع التى انقضت عليهم بأعداد هائلة وزاحمتهم فى عيشهم فكان لايكاد الرجل منهم يجد مكانا ينقل فيه قدمه من كثرة أعداد الضفادع التى افترشت الأرض وامتلأت بها أوانى طعامهم وشرابهم.. ولم يجدوا أمامهم سوى اللجوء إلى موسى مرة أخرى وهم يصرخون ويبكون ويعلنون التوبة والرغبة فى الرجوع إلى الحق والتخلى عن الكفر ويعدون بإرسال بنى إسرائيل معه.. واستمع إليهم «كليم الله موسى» وهو يعلم غدرهم ومكرهم.. فأخذ عليهم المواثيق والعهود ثم دعا الله أن يرفع عنهم البلاء فاستجاب الله له.. واختفت الضفادع.. ولم يحفظ فرعون وقومه العهود والمواثيق التى قطعوها على أنفسهم فى وقت الشدة.. ولم يؤمنوا بالله ولم يرسلوا بنى إسرائيل مع موسى.. فقد كانوا فى كل مرة يتوقعون انتهاء الأزمة وعدم تمسك موسى بما يدعو إليه فقد كانت وسطوة فرعون وعبادته تملأ قلوبهم بالظلام.. ولم ينتبهوا إلى أن آيات الله فى تعذيبهم كانت تزداد قوة فى كل مرة وتتنوع لتثبت لهم أن هناك مخلوقات قد لايعيرونها أى انتباه قادرة بأمر الله على تحويل حياتهم إلى جحيم.. وكان لابد أن تكون هناك مرة أخيرة وابتلاء أخير لتبدأ من بعده مرحلة جديدة تنهى عهدا.. ليبدأ عهد جديد وكان الابتلاء الأخير لفرعون وقومه هو أشد أنواع الآيات وأغربها وأقساها.. المياه لديهم حمراء بلون الدم فكانوا لايجدون شربة ماء وكاد العطش والجوع يهلكهم حتى أنهم لم يجدوا أمامهم سوى أوراق الأشجار يأكلونها.. ولكنها كانت تتحول فى أفواههم إلى طعم الدم.. ومع كل هذه الآيات لم يؤمن فرعون وقومه وظلوا على مقولتهم بأن كل هذه الآيات ماهى إلا سحر.. وقال الله تعالى فيهم «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ» (الأعراف ١٣٣).

وعند هذا الحد شعر سيدنا موسى أنه لا فائدة ترجى فى فرعون وقومه خاصة بعد كل الأحداث التى مرت عليه من إظهار معجزة العصا إلى أحداث يوم الزينة التى خر فيها السحرة ساجدين مؤمنين بالله.. ولم يجد نبى الله موسى أمامه سوى الابتعاد عن هؤلاء القوم أصحاب القلوب المتحجرة.. فاعتزلهم ولحق بأحياء قومه من بنى إسرائيل ومنازلهم خارج المدينة وتفرغ مع شقيقه ووزيره

هارون لتعليم بنى إسرائيل ملة آبائهم يوسف ويعقوب وإسحق وإبراهيم وإعداد دور العبادة لهم لاداء الصلاة بها وجعلاها فى اتجاه القبلة.. وكانوا فى معظم الأوقات يتعبدون سرا خوفا من فرعون.

فدعا موسى عليهم بأن يهلك أموالهم ومتاعهم وأن تزداد قلوبهم قسوة حتى ينالوا العذاب العظيم وكان شقيقه ووزيره هارون يعقب على دعائه بقوله آمين.. وبعد الدعاء إلى الله والابتهال تلقى موسى الأمر الإلهى بالخروج من مصر مع بنى إسرائيل متسترين بالليل ومتجهين إلى البحر فجمع بنو إسرائيل كل ما استطاعوا جمعه من متاع وماشية واستعدوا للانطلاق ونشطت نساء بنى إسرائيل فى إستعارة حلى المصريات الذهبية مبررات ذلك للاحتفال لديهن واستطعن جمع كمية هائلة من الحلى الذهبية والتى سيكون لها دور كبير فيما بعد والتى سيستغلها السامرى فى صنع عجله الذهبى.

خرج بنو اسرائيل خلف موسى وهارون عليهما السلام متجهين ناحية البحر.. ورغم كل الحيطة التى اتخذوها إلا أن أمر رحيلهم قد وصل إلى مسامع فرعون.. فخروج عدة آلاف من البشر أمر ليس بالهين ولا يمكن إخفاؤه.. ووسط كل هذا الحشد كان السامرى يسير مع السائرين وهو يحمل داخل قلبه كفرا مستقرا ونفسا شديدة اللوم والخبث.. فهو مضطر إلى الرحيل .. مع بنى إسرائيل الذين ينتمى إليهم ولا يستطيع التخلف عنهم بعد تركه لأعمال السحر والكهانة خوفا من عقاب فرعون.

اغتاظ فرعون لهروب بنى إسرائيل وأرسل فى جمع جيش من المدن المصرية لمطاردتهم واستردادهم مرة أخرى حتى يخضعوا له.. وجمع جيشاً هائلاً وتقدمه هو بنفسه خلف موسى وبنى إسرائيل الذين كانوا قد وصلوا إلى ساحل البحر الأحمر.. وهو ماجعل (حزقيل) مؤمن آل فرعون وابن عمه ويوشع بن نون فتى موسى وحفيد يوسف عليه السلام لسؤال موسى عن أمر الله لهم بعد أن وجدوا البحر يعيق تقدمهم وهم لايمتلكون سفنا ولا مراكب. وأجابهم نبى الله موسى بأن الله أمره أن يصل إلى البحر وأن الله لن يتركهم فهو الرحمن الرحيم.. وهم فى حديثهم لاح لهم فى الأفق غبار فرعون وجيشه وماهى إلا ساعات قليلة حتى رأى

بنو إسرائيل الجيش بوضوح شديد وأصبح الخطر وشيكا وجاء أمر الله إلى موسى بقوله تعالى : «اضرب بعصاك البحر» فامتثل موسى للأمر الإلهى وهوى بعصاه على البحر.. لتتحقق المعجزة الثالثة أمام أعين بنى إسرائيل جميعا كبيرهم وصغيرهم.. من امتلأ قلبه بالإيمان ومن انغلق على الكفر كالسامرى ومن سيتبعه منهم بعد قليل.. انفلق البحر وانشق طريقا وأصبح الماء على الجانبين كجبلين شاهقى الارتفاع.. وانطلق لسان موسى عليه السلام بالدعاء قائلا «يامن كنت قبل كل شىء والمكون لكل شىء، والكائن بعد كل شىء، اجعل لنا فرجا ومخرجا» وأصبح الطريق المنشق بأمر الله فى الماء يابسا ممهدا لعبور بنى إسرائيل الذين انطلقوا خلف موسى عابرين البحر وهم فرحون مستبشرون من عظمة المعجزة وقوتها.. عبروا جميعا وماكادوا يصلون إلى الشاطئ.. حتى شاهدوا فرعون وجنوده على الجانب الآخر.. وكان فرعون يقف مذهولا.. يشعر بحيرة شديدة تراوده الكثير من الأفكار ولا يستطيع أن يتخذ قرارا أمام المعجزة الهائلة التى حدثت أمامه فهو كان أعلم الناس بأنه كافر ومدع فالموقف شديد الخطورة ويتوقف على الخطوة التى سيتخذها مصير ملكه وسلطانه وهيبته أمام جنوده وشعبه وعبيده فما تبقى له من سلطان داهمته الشكوك واتخذ قراره فى أن يستمر بإدعائه الكاذب.. وتحول إلى جنوده وخاطبهم وطلب منهم أن ينظروا كيف انشق البحر له ليدرك عبيده الهاربين من بنى إسرائيل.. ورغم ادعائه كان يشعر بداخله بالخوف والرهبة والتردد الشديد فلم يقدم على العبور والسير خلف بنى إسرائيل.. وهنا تختلف الروايات حول القرار الذى اتخذه فرعون فهو قد يكون غلبه غروره وكفره وصدق أن الطريق انشق أمامه ليتمكن من مطاردة بنى إسرائيل فانطلق ومن خلفه جنوده.. فى حين اتفق بعض الصحابة والمفسرين على قول آخر من أمثال عبدالله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الأحبار وسماك بن حرب وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم.. على أن سيدنا جبريل كان حاضرا بأمر الله معجزة العبور وعندما شاهد تردد فرعون.. ظهر بين الجيش فى صورة فارس راكبا جواده ومرتديا زى الحرب وإنه حث فرس فرعون وسبقه إلى البحر ليتبعه فانطلق وخلفه الفرعون والجنود وحين أصبح الجيش كله على الطريق أمر الله

البحر أن يطبق عليهم فإذا بجبلى الماء القائمين ينهاران فجأة، فيطبقان بعنف على فرعون وجنوده فغرقوا فى البحر وموسى وهارون وقومهما ينظرون على الجانب الآخر وكان السامرى من بين الوقوف يرى المعجزة الإلهية ويكتم حقيقة مشاعره وما يعتمل فى قلبه من خلجات الجحود والكفر.. وشاهد ومعه بنو إسرائيل فرعون وهو يغالب الموت ويصارع الموج بعد أن ذهب عنه جاهه وسلطانه وغروره وأدرك أنه عبد ضعيف من عباد الله، وأحس بهزيمته وذله ووحدته وأدركه الغرق وأيقن بالهلاك فصرخ بأعلى صوته قائلا كما جاء فى كتاب الله العزيز «آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين» ولم تنجح محاولة فرعون الأخيرة فى النجاة فالله سبحانه وتعالى مطلع على ما فى قلبه من الكفر والجحود وأن إيمانه ماهو إلا مراوغة.. وغرق فرعون أمام أنظار بنى إسرائيل.. ولكن بعضا منهم شكوا فى موت فرعون.. حتى قال بعضهم إنه لايموت.. فأمر الله تعالى البحر فرفع جثة فرعون بملابسه وزينته ودروعه وألقاها أمامهم على البحر ليشاهدوا بأعينهم نهاية ظالم وطاغية وقال الله تعالى فى القرآن الكريم «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً» (يونس ٩٢) وكانت هذه الكلمات آخر ما استمع إليه فرعون من جبريل الذى خرج من الماء على جواده وفى تلك اللحظات الخاصة جدا تبدأ الأحداث التى شارك فى صنعها السامرى.. الذى تابع كل ماحدث أمامه بدقة شديدة.. ولاحظ وشاهد حدثا لم يره أحد غيره.. فعندما خرج جبريل عليه السلام على جواده من الماء رأى السامرى ماخلفته خطوات جواد جبريل.. فكلما كان يطأ الأرض الرملية كانت تتحول إلى عشب أخضر.. فأسرع السامرى وملأ يديه من أثر جواد سيدنا جبريل على الرمال؟ ولكن كيف عرف السامرى أن لهذا الأثر قدرات خارقة: وكيف تعرف على سيدنا جبريل عليه السلام، وأدرك أنه ملك من عند الله سبحانه وتعالى.. هناك روايتان تفسران ذلك.

الرواية الأولى تبدأ من لحظة ميلاد السامرى وتتزامن مع مولد سيدنا موسى نفسه.. فبعد أن نصب الفرعون نفسه كإله يعبده رعاياه من المصريين وفى أحد الأيام استيقظ الفرعون من نومه صارخا بعد أن رأى.. رؤيا أصابته بالفزع.. فقد حلم بأن ناراً هائلة تقبل من جهة بيت المقدس وتدخل إلى مصر مسرعة

وتشب فى بيوت المصريين. فتحرقها جميعا.. ولا تمس بيوت بنى إسرائيل التى بقيت سليمة وأسرع فرعون واستدعى الكهنة والمنجمين يسألهم عن معنى وتفسير حلمه المخيف.. وفسر له الكاهن الأكبر رؤياه على أنها «يولد فى مصر مولود من بنى إسرائيل .. يذهب ملكه على يديه ويكون هلاك فرعون بسببه».

وجن جنون فرعون عندما استمع لتفسير كاهنه وأصدر أوامره بأن يذبح كل مولود ذكر يولد لبنى إسرائيل وجعلهم جميعا تحت مراقبة دقيقة فجنوده منتشرون مابين منازلهم والمولدات يبلغن عن أى مولود ذكر يولد فيقتل فى الحال والجواسيس من بنى إسرائيل أنفسهم يحملون أخبار المواليد الذكور من بنى إسرائيل بسبب رؤيا فرعون وتفسيرها إلا أن هذه الرؤيا كانت بمثابة بشارة التمهيد لظهور سيدنا موسى وبدء رسالته التى بدأت مع مولده فى وقت رؤيا فرعون وهو ما تداركته أم سيدنا موسى بعد أن استطاعت أن تحتفظ بسر ولادته وأن يلهمها الله سبحانه وتعالى أن تضعه فى الصندوق وتلقيه فى النهر تحت رحمة الله ورعايته وترسل شقيقته لتسير بجانب الشاطئ لتراقبه حتى حملته المياه إلى قصر فرعون نفسه وكانت أم السامرى لديها نفس المخاوف وكانت تحمل جنينها وتعيش فى رعب من انتظار لحظة الولادة حتى لايتم ذبحه وعندما داهمتها آلام الولادة خرجت إلى كهف فى الصحراء لكى تلده خوفا من أن يتسرب خبر إنجابها ويعرف به جواسيس فرعون إذا كان المولود ذكرا.. وفى الكهف ولدت وعرفت أنه ذكر وقيل إنها ماتت وهى تلده وظل الطفل فى الكهف وحيدا.

وقال ابن العباس إن سيدنا جبريل كان يأتى الطفل فيغذيه بأصابعه وكان يطعمه ويسقيه لبنا وعسلا وسمنا حتى كبر واستطاع أن يشد عوده ولا توجد أى معلومات عن نشأته حتى كبر وإن كان من المؤكد أنه عاش فى مصر واختلط بأهلها وعرف آلهتها وأنه دخل فى دين بنى إسرائيل فى فترة ما.. وتحدث ابن العباس عن احتمالات انه كان من جيران سيدنا موسى وأنه آمن بدعوته وخرج معه وذكر فى تفسير القرطبى أن السامرى كان عظيما من عظماء بنى إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام.

وقيل إن السامرى ولد فى بنى إسرائيل وكان ساحرا لا يشق له غبار وأنه لما عبر

البحر مع بنى إسرائيل ورأى فارسا غريبا يلبس عمامة سوداء ويمتطى جوادا لامثيل له.. فسأل موسى عن ذلك الفارس فأخبره بأن ذلك هو جبريل عليه السلام ويركب فرسه (حيزوم).. فأخذ السامرى قبضة من الرمال التى وطأها جواد جبريل حتى يستعملها فى سحره وخداعه بعد أن أدرك قيمتها وماهى قادرة على فعله.

استكمل بنو إسرائيل سيرهم بعد العبور.. ومروا فى طريقهم على قوم من العمالقة يعبدون الأصنام ويسجدون لها.. وقيل إن هذه الأصنام كانت على هيئة الأبقار.. فسأل بنو إسرائيل العمالقة عن أسباب عبادتهم لهذه الأصنام! فقالوا لهم إنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون منها.. وبكل تأكيد لفت ذلك المعبود أنظار السامرى واستشعر ميل بعضهم إلى عبادته خاصة بعد أن تقدم بعض الجاهلين منهم إلى نبى الله موسى وطلبوا منه أن يجعل لهم آلهة مثل هؤلاء القوم وبصبر عظيم وفهم لطبيعة بنى إسرائيل رد عليهم بأن هؤلاء القوم لايعقلون ولا يهتدون وقد قال الله تعالى «وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» الأعراف ١٣٩-١٣٨

واستمرت رحلة بنى إسرائيل مع نبى الله موسى وازدانت الرحلة بالعديد من الآيات والمعجزات فعندما شعروا بالعطش ضرب موسى الأرض بعصاه بأمر الله فتفجرت اثنتا عشرة عين ماء على عدد أسباطهم وعندما لفحتهم الشمس الحارقة أشار موسى بعصاه إلى السحاب فأظلهم وعندما شعروا بالجوع أرسل الله لهم المن والسلوى.. وكان السامرى يتنعم بما يرسله الله لهم من رزق وإن كان عقله وقلبه قد انطويا على أمر آخر واختمرت الفكرة فى رأسه.. فلديه قبضة من أثر رسول علم بقدراتها ولديه علم سابق فى فنون السحر والشعوذة والكهانة التى كانت سائدة بين المصريين فى ذلك الوقت وكان يعلم جيدا ما تنطوى عليه نفوس كثيرين من بنى إسرائيل ممن اعتادوا على عبادة آلله المصريين وهو يعلم طبيعتهم المادية وميلهم للجحود والنكران وسواد نفوسهم الذى لا ينفع فيه الإيمان والروحانيات.. ولم يبق لدى السامرى سوى اختيار الوقت المناسب لإطلاق فكرته ودعوته التكفيرية.

وسار بنو إسرائيل خلف نبى الله موسى وشريكه وشقيقه ووزيره هارون حتى استقر بهم المقام وهم متمتعون بالطعام الشهى وبالماء العذب وسط حر الصحراء اللافح.. وحان موعد ذهاب موسى للقاء ربه.. فقد أوصى الله موسى أن يصعد إلى الجبل ويمكث فيه ثلاثين ليلة حتى إذا أتمها أعطاه الله ألواحا كتب عليها وصايا يأخذ بها بنو إسرائيل لتصبح قانونهم وشريعتهم التى يسيرون عليها هم ونسلهم من بعدهم.. وأمر الله موسى أن يصوم الثلاثين يوما قبل أن يلقاه فأطاع موسى وصام وما إن انتهت الثلاثين يوما حتى اشتم سيدنا موسى تغير رائحة فمه من الصيام.. فمضغ بعض النبات حتى تذهب رائحة فمه ليستعد للقاء ربه.. فأوحى الله إليه «أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك».. فأمره الله تعالى أن يزيد على أيام صيامه عشرة أيام أخرى..

وجاءت اللحظة الفاصلة واستعد نبى الله موسى لمغادرة قومه.. ليذهب للقاء ربه فاختار من قومه سبعين رجلا كان الله سبحانه وتعالى قد كلف موسى بأن يختارهم ممن رأى فيهم قوة الإيمان وصدق الاتباع ومن أشدهم طاعة لله ورسوله ليرافقوه لموعده مع الله فى جبل الطور.. فاختار موسى من كل قبيلة «سبطاً» وأمرهم أن يتطهروا ويصوموا.. وقبل أن يخرج بهم أوصى موسى شقيقه ووزيره هارون بالعناية والاهتمام ببنى إسرائيل وأوكل إليه إدارة شئونهم وإصلاح الأمر بينهم وحذره من المفسدين منهم.. فقد كان نبى الله موسى يعلم جيدا مدى ضعف نفوس البعض منهم.

استكمل سيدنا موسى وصيته لشقيقه هارون بأن أعلن لقومه أنه لن يغيب عنهم أكثر من ثلاثين يوما مدة صيامه.. وانطلق موسى ومن خلفه الرجال المختارون.

فى الأيام الأولى لغياب موسى.. عرف السامرى أن الفرصة قد حانت لتنفيذ مخططه فى الاستيلاء على السلطة والزعامة الدينية والروحية لبنى إسرائيل فبدأ يحدثهم ويذكرهم بالآلهة التى تركوها خلفهم وكانت لها طقوسها المحببة إليهم.. وكما توقع السامرى لقيت دعوته التى بدأها بحذر شديد استحسانا لدى الكثيرين.. ولم يتبق لديه إلا اختلاق إله مبهر يخرجه إليهم بأسلوب مبهر يستحوذ على عقولهم

وقلوبهم التى كانت على أتم استعداد للانقياد وراء السامرى .. الذى حرك بداخلهم ذكريات الخوارق والسحر والسحرة التى كان لها شأن عظيم فى مصر.

كان السامرى يعمل بهدوء وبحذر وهو يتلمس أغوار وخفايا نفوسهم ومشاعرهم.. غاب موسى.. وراقب السامرى حالة من التذمر سرت بين بنى إسرائيل وبدأ ظهور مشاعر الذنب والحيرة لدى البعض منهم بسبب احتفاظ نسائهم بالحُلى الذهبية التى استعاروها من جاراتهن المصريات قبل خروجهن.. وأعزى البعض طول غياب نبى الله موسى بأنه غضب عليهم بسبب الحُلى التى قال البعض عنها إنها مسروقة وإنها تجلب عليهم غضب الله وقيل إن سيدنا هارون عندما لمس حالة التذمر والضيق التى نسجها السامرى بدقة ومهارة اقترح عليهم أن يلقوا بالحلى الذهبية داخل حفرة ويتم صهرها حتى تتحول إلى حجر واحد حتى إذا رجع سيدنا موسى يرى فيها مايشاء.. وقيل أيضا إن السامرى كان هو صاحب اقتراح جمع الحُلى الذهبية بعد أن أقنعهم أن غيبة موسى قد طالت بسبب غضب الله عليهم لتمسكهم بالحُلى المسروقة وأنها تسبب لهم اللعنة فما كان منهم إلا أن جمعوا الحُلى وأعطوها للسامرى الذى ألقى بها فى النار فصهرها حتى أصبحت كتلة واحدة.

وسواء كانت القصة الأولى صحيحة أو الثانية فإن الأحداث التى تلت ذلك هى الأكثر أهمية.. فالسامرى نجح فى تنفيذ بدايات مخططه.. فما إن وجد أمامه كتلة من الذهب حتى عكف عليها ينحتها بمهارة فائقة وهو يضع أمام عينيه صورة العجل «أبيس» الإله المفضل لدى المصريين والذى كانت له مكانة هائلة فى نفوسهم حتى أن العجول المؤلهة كانت إذا ماتت تم تحنيطها ودفنها فى مقابر خاصة بها وبعد أن نحت السامرى العجل ألقى على الكتلة المنصهرة القبضة التى احتفظ بها من أثر سيدنا جبريل وقبل أن يلقيها سأل هارون عليه السلام أن يدعوا له.. أن يستجيب الله لدعائه.. فدعا له هارون وهو لايعلم مافى نفسه.. ودعا السامرى أن يخرج من العجل خوار.

وقال ابن العباس إن هارون عليه السلام.. مر على السامرى وهو ينحت العجل فسأله عما يفعل.. فقال له السامرى.. أصنع ما يضر ولاينفع.. فقال هارون «اللهم

أعطه ما سأل على مافى نفسه» وتركه هارون.. فقال السامرى اللهم أنى أسألك أن يخور.. فخار العجل..

وأعلن السامرى عن الإله الجديد وهو يعلم جيدا مدى تشوق بعضهم لعبادة الأصنام والخروج عن طاعة الله.. فحبب إليهم الأمر وحاول أن يبدى لهم عذرا تقبله نفوسهم الضعيفة ويلاقى لديهم مبررا لترك عبادة الله الواحد الأحد.. والالتفاف حول الإله الجديد المصنوع من الذهب وبرر لهم ظهور الإله الجديد بأن موسى عليه السلام عندما ذهب نسى أن يقول لهم إنه ترك لهم إلها وجاء فى سورة طه فى الآية ٨٨ ما يشرح هذا المعنى بقول الله «فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى» وفرح من أشرك بالله بعبادة العجل والتفوا يرقصون حوله وقيل إن العجل كان يتحرك ويخور.. وكان هارون عليه السلام يرى مايحدث أمامه ويحاول أن يعيد المشركين إلى الإيمان بنصحهم وتذكيرهم بعبادة الله الواحد وأن ماوقعوا فيه ماهو إلا ضلال وشرك وخروج عن طاعة الله فقال لهم «وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعونى وأطيعوا أمرى» ولم يستمعوا إلى نصحه بل زادوا على ذلك بأن أعلنوا له صراحة بأنهم لن يتركوا عبادة العجل حتى يعود إليهم موسى عليه السلام.

وشعر السامرى أنه حقق نجاحا ساحقا تفوق فيه على موسى وهارون عليهما السلام مما دفعه إلى الانتقال إلى مرحلة أخرى من مخططه فى الاستيلاء على السلطة والقيادة لبنى إسرائيل بأن أشاع بأن موسى لن يعود إليهم مرة ثانية.. كان السامرى يستعد للسيطرة الكاملة على بنى إسرائيل ومقدراتهم.. فإذا كانوا قد عبدوا الإله المصنوع فماذا كان سينتظره هو شخصيا وهو خالق هذا الإله!!

وفى نفس الوقت كان موسى عليه السلام يسرع الخطى.. مشتاقا للقاء ربه فى الوقت الموعود.. وكان الشوق للقاء ربه قد غلبه فجعله يسرع حتى سبق السبعين نقيبا من قومه الذين خلفهم وراءه فقد كانت لهفته عظيمة للقاء ربه بعد أن كان قد مر ثلاثون عاما على اللقاء الأول الذى تلقى فيه التكليف بالنبوة والرسالة والمهمة العظيمة.. ووقف موسى بين يدى الله خاشعا.. متلهفا لتلقى أوامره.. وحين تقدم إلى البقعة المقدسة سأله الله سبحانه وتعالى عن إسراعه وتركه قومه من

خلفه.. فأجابه موسى عليه السلام بأن سرعته كانت للهفته للقاء الله ومن أجل أن يرضى عنه سبحانه وتعالى.. وملأ الحب والشوق والسرور نفس موسى عليه السلام.. ودفعه ذلك الحب إلى أن يطلب من الله عز وجل أن يراه فقال سبحانه لموسى «لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى» وتجلى من نور الله قدر نصف أنملة الخنصر.. فاندك الجبل وتفتت فصار ترابا.. وسقط موسى عليه السلام مغشيا عليه من هول مارأى.. وظل فى غفوته وحين أفاق.. أدرك عظم وهول ماطلبه فأسرع بقلب مملوء بالإيمان والخشوع وطلب التوبة من رب العالمين بعد أن أدرك أن رؤية الله فى الدنيا أمر لايمكن أن يحتمله بشر حتى ولو كان نبيا ورسولا من المصطفين.. فأجابه الله سبحانه وتعالى عن توبته بقوله « ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى».

واطمأن قلب موسى عليه السلام بعد أن تقبل الله توبته.. وتلقى موسى ألواح التوراة العشر التى نزلت من السماء وبها الدستور والقانون الذى ينبغى أن يسير عليه بنو إسرائيل وبدأت الألواح العشر.. لا إله إلا أنا فاعبدنى ولا تشرك بى شيئا

والثانية، اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير أحييك حياة طيبة».

الثالثة.. لاتقتل النفس التى حرمت عليك، فأضيق عليك السماء بأقطارها والأرض برحبها.

الرابعة.. لاتحلف باسمى كاذبا فإنى لا أطهر ولا أزكى من لايعظم اسمى.

الخامسة.. ولا تشهد بما لايعى سمعك ولا تنظر عينك، ولايقف عليه قلبك، فإنى أوقف أهل الشهادات على شهادتهم يوم القيامة وأسألهم عنها.

السادسة.. ولاتحسد الناس على ما آتيتهم من فضلى ورزقى فإن الحاسد عدو نعمتى، ساخط لقسمتى.

السابعة.. لاتزن

الثامنة.. لا تسرق.. فأحجب عنك وجهى وأغلق دون دعوتك أبواب السماء.

التاسعة.. لاتذبح لغيرى، فإنه لا يصعد إلىّ من قربات أهل الأرض إلا ماذكر عليه اسمى.

العاشرة.. وأحبب للناس ماتحب لنفسك واكره لهم ماتكره لنفسك.

واحتضن موسى عليه السلام الألواح المباركة وقبل أن ينصرف من الحضرة الإلهية قال الله سبحانه وتعالى له «فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى».. فعلم موسى عليه السلام من كلام الله أن قومه تركوا عبادة الله الواحد الأحد وأن شقيقه ووزيره هارون عليه السلام فشل فى مهمته بالحفاظ على الدعوة.. عاد كليم الله إلى موقع بنى إسرائيل مخترقا جبال ووديان سيناء الوعرة والغضب يزيد من سرعته والحزن الشديد يملأ قلبه.. ويداه تحتضن الألواح المباركة.. وما إن اقترب من موقعهم حتى تناهى إلى سمعه أصوات الغناء والصراخ.. واللهو حتى رآهم وهم يرقصون ويتزاحمون حول العجل الذهبى وهم لاهون ، فرحين.. مستسلمين لطبيعتهم التى تميل إلى الجحود والكفر فصاح فيهم موسى عليه السلام.. والغضب يتملكه غيرة منه على دين الله وهو يؤنبهم على أفعالهم وعلى السوء والضلال الذى يملك قلوبهم ومن شدة غضبه مما رآه ألقى الألواح المباركة وصب جام غضبه على المسئول عن رعاية القوم فى غيابه.. ووقف أمامه هارون عليه السلام ليجيبه .. وكانت مساءلته العلنية هى أول محاكمة لمسئول بدون محاباة لمكانته كشقيق له وشريك فى الدعوة والمسئولية ومتحمل معه متاعب الدعوة ومخاطر مواجهة فرعون وجنوده.. ومشقة الخروج.. فلم يكن هارون شقيقه المقرب إلى نفسه وإنما ساعده الأيمن .. والمتحدث باسمه ورفيقه طوال سنوات الدعوة الطويلة.. كل هذا اختفى أمام غضب موسى عليه السلام على دين الله حتى أنه لم يكتف بتأنيب هارون وإنما تناول رأسه وهو النبى والشقيق الأكبر فى السن.. فأخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بيساره وهو يجره إليه ويهزه بعنف وقسوة هزا عنيفا ويقول له كما جاء فى كتاب الله «ياهارون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا.. ألا تتبعن أفعصيت أمرى».

وكانت كلمات موسى عليه السلام لاتحمل معانى التأنيب والغضب فقط بل حملت توجيه اتهام واضح ومباشر لهارون عليه السلام على تقصيره وعلى عدم حزمه والسماح بخروج الأمور من بين يديه.. وكان لومه له على عدم قدرته على اتخاذ قرار مناسب وحاسم لمواجهة هذه الفتنة وجاء رد هارون عليه السلام.. رد رجل مسئول مدرك لحقيقة المشكلة وأبعادها لديه فهم عميق لحقيقة الأزمة التى أحدثها السامرى

ومن التفاف الكثيرين حول عجله الذهبى مما جعله يقدر حجم قوته.. إلى جانب أنه أدرك بوضوح أن نجاح دعوة السامرى استندت فى أساسها على غياب موسى عليه السلام وأدرك أنه بمجرد عودته ستنهار تلك الفتنة مما جعله يصبر ويكتفى بنصح من اتبعه وإرشادهم..كما أنه فهم وبوضوح ومنذ اللحظة الأولى لتحرك السامرى أن مايقول به (فتنة) سيتحدد على أساسها حقيقة إيمان بنى إسرائيل.

ولم ينس هارون عليه السلام وصية شقيقه موسى برعاية بنى إسرائيل فذكره أنه خشى أن يتخذ قرارا حاسما لمعاقبة عبدة العجل فيؤدى ذلك إلى انقسامهم إلى فريقين متحاربين أو إلى عدة فرق.. مما كان سيؤدى إلى إضعاف الدعوة.. ولم يهدأ غضب موسى عليه السلام أمام استعطاف هارون وأسانيده العقلية.. فما كان من هارون عليه السلام إلا أن ذكر أمامه السبب الأخير وهو أنه بذل كل المحاولات ليعيدهم إلى طريق الإيمان إلا أنهم هزأوا منه وكادوا يقتلونه.

وجاء ذلك القول فى كتاب الله «ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى» وهنا أدرك موسى عليه السلام أن شقيقه ووزيره لم يتهاون فى دينه ولم يسمح لهم.. بل قاومهم وحاربهم ولم يستطع التغلب على أمارات الكفر المستقرة فى قلوبهم.. وعندما بدت على موسى عليه السلام علامات الهدوء.. والتفهُم لموقف هارون عليه السلام.. خاطب شقيقه من أجل الحفاظ على هيبته ومكانته فترجاه أن لايسىء إليه حتى لا يسر أعداؤه ويستمتعوا بالإهانة التى وقعت عليه.. كما رجاه أن لايجعله فى عداد الظالمين الذين عبدوا العجل.. وأن يتفرغا لمواجهة هذه الفتنة.

تمت محاكمة هارون عليه السلام.. وظهور براءته أمام بنى إسرائيل الذين استمعوا إلى الحوار الذى دار بين الشقيقين.. وكان السامرى يقف خائفا.. مرتجفا.. بين الجمع الغفير.. وجاء الدور على السامرى وهنا نرى بوضوح شديد أن موسى عليه السلام كقائد ومسئول.. بدأ بمحاسبة المسئول عن بنى إسرائيل أولا قبل أن يقوم بمساءلة المجرم أو المتسبب فى الأزمة فهو كقائد عادل وضع أمامه احتمال أن الوزير أو المسئول هو الذى أخطأ بإهماله أو بعدم قيامه بواجبات مهامه بالسماح بحدوث فتنة العجل فلما تأكد أن الوزير هارون لم يخطئ وأنه أدى واجبه على قدر ظروفه وجه حديثه إلى المحرض.. صانع الكفر.. بكلمات بسيطة

وبصورة حاسمة «قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ » (طه ٩٥).

وتحمل بساطة الكلمات ودقتها الشديدة.. حصر الاتهام وبوضوح فى السامرى وجاء رد السامرى «قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ» (طه ٩٦).

ليدلل وبوضوح عن الحالة النفسية التى كان فيها فهو لم يراوغ أو يختلق أسبابا وهمية أو يبحث لنفسه عن أعذار.. بل أقر بسرعة ووضوح شديد بما صنعه وهو أمر يعكس خوفه الشديد وإدراكه لانكشاف أمره مما جعله يقص على موسى عليه السلام قصة صنعه الإله المزعوم.. واستخدامه لأثر جبريل عليه السلام التى يسرت له الأمر.. ويبدو أنه أدرك أن المسألة انتهت عند ذلك الحد حتى أنه أعطى المبرر أو الدافع لقيامه بتلك المؤامرة منذ البداية وقرر فعلته كما جاء فى سورة طه الآية ٩٦ «فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي» وهنا نسب السامرى تحريضه على الكفر بالله وابتكار «إله» إلى نفسه أى إلى رغبته الحقيقية فى الكفر والبعد عن الله باختياره الحر والكامل فى ترك عبادة الله وتحريض غيره على القيام بنفس الفعل وهو أمر يسبب له الرضا الكامل لشعوره بأنه يمتلك القدرة على التأثير فى الآخرين وجعلهم ينقادون له وإخضاعهم لما أملاه عليهم وأضلهم به.. فالسامرى كان يمتحن قدرته وقواه فى التأثير على الآخرين.. وهو ماجعله يعترف بالحقيقة كاملة بلا مواربة فهو لم يدع أن أحدا غدر به أو أن إبليس مثلا تدخل لغوايته أو إنه ضعف أو ضل لسبب ما.. بل ذكر الحقيقة كاملة التى أنطقه بها الله سبحانه وتعالى.

وأمام هذا الاعتراف.. أتخذ موسى عليه السلام قرار عقاب السامرى على الفور وكان العقاب حاسما وسريعا وفعالا وشديد الإيلام على حجم وقدر جريمة السامرى وأيضا عقابا له خصوصية شديدة لم يسبقه إليه أحد على الإطلاق فقال له موسى «فاذهب فإن لك فى الحياة الدنيا أن تقول لا مساس».

حكم على السامرى بأن لايمس أحداً أو يمسه أحد.. فمن يمس السامرى.. سيجعل الحمى تسرى فى جسده.. فكان السامرى يمشى ويصرخ قائلا.. لامساس.. لا مساس فتحاشاه الناس واجتنبوه فلا يسلم أحد عليه بيده.. وانطلق السامرى تائها فى البرية.. عقابا له على أنه تجرأ ومس أثر سيدنا جبريل.. وقد يكون ذلك العقاب مقدرا له منذ أن وضعته أمه طفلا رضيعا وحيدا فى البرية

ولكن رحمة الله أدركته وهو طفل ولم يحفظها هو عندما كبر وصار رجلا فهو كما قال بعض المفسرين ولد فى البرية وعاد إليها لتفترسه الوحدة والأوهام والوحوش.

كان هيامه صارخا فى البرية العقاب الذى قدر له فى الدنيا وهو غير العقاب الذى كان سينتظره فى الآخرة كما جاء فى قول الله سبحانه وتعالى فى سورة طه.. الآية ٩٧ «قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَه».

فهو سيعاقب أيضا فى الآخرة بعد أن أشرك بالله وحرض غيره على ذلك وتفنن فى ابتكارالإله الذهبى لهم واقتحم قلوبهم الضعيفة ونفوسهم المهترئة فأغواهم بترك عبادة الله الواحد الأحد.

ابتلعت صحراء سيناء السامرى.. وانتقل سيدنا موسى عليه السلام إلى المرحلة التالية فى معالجة أزمة السامرى.. فكان لابد أن يتخلص وينهى أسطورة العجل الذهبى فدمره.. تدميرا كاملا.. وقيل إنه صهره.. وقال الضحاك عن ابن عباس إنه سحل العجل بالمبارد وألقاه فى النار.. وقال قتادة استحال العجل الذهبى إلى لحم ودم فأحرقه بالنار ثم ألقى برماده فى البحر وهو ماجاء فى سورة طه الآية ٩٧ «وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليَمِّ نَسْفاً ».

وكان التخلص من العجل بتلك الطريقة أمرا حاسما لإنهاء كل مايتعلق به وتأكيدا واضحا على تفاهة وضآلة الإله المزعوم.. وقيل إنه عندما ألقى النبى موسى عليه السلام رماد العجل فى الماء أمر بنى إسرائيل فشربوا من الماء.. فمن كان عابدا للعجل التصق على شفتيه رماد العجل أو اصفر لونه..

وبتدمير العجل والقضاء عليه.. انتهت مؤامرة السامرى.. أمام ثورة سيدنا موسى عليه السلام الذى عالج الأمر بحكمة شديدة.. ففى البداية حاكم المسئول الأول عن بنى إسرائيل فى غيابه وزيره وشقيقه هارون.. حتى أثبت براءته.. أى بدأ بمحاسبة أقرب الناس إليه.. ثم عاقب المجرم والمحرض وحاكمه بشكل علنى ووقع عليه عقاب من نوع خاص يمنعه من التعامل مع البشر ثم حطم ودمر الإله المزعوم المصنوع من الذهب على شكل العجل حتى ينهى الأسطورة تماما ويؤكد لهم عدم فاعلية الإله المزعوم وليثبت لبنى إسرائيل أنهم كانوا بعبادته على ضلال..

لم تنته ثورة موسى عليه السلام التطهيرية .. فكان هناك مجموعة من بنى

إسرائيل اتبعوا السامرى وخضعوا له واستجابوا لدعوته وكان لابد أن ينالهم هم أيضا العقاب.. فالسامرى لم يجبرهم على اتباعه وعبادة الإله المصنوع من الذهب .. وإنما حرضهم وزين لهم عبادته.. فاتبعوه.. وعندما شاهدوه وهو يصرخ هائما فى الصحراء.. شعروا بالخوف الشديد والندم والحيرة.. فكبيرهم تاه فى الصحراء.. وإلههم تحول إلى رماد واختلط بالماء.. ولم يتبق إلا ذنوبهم وخطاياهم وكفرهم داخل نفوسهم.. وكان لابد أن ينالهم العقاب خاصة بعدما هدأت ثورة موسى عليه السلام.. وجمع الألواح المقدسة التى كان قد ألقاها فى ثورة غضبه.. ولم يفدهم حديثهم عن التوبة والغفران فالأمر الإلهى كان قد صدر وأوحى الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام بنوعية العقاب الذى سيحل ببنى إسرائيل.. فمن أشركوا بالله.. وعبدوا العجل بعد كل مارأوه من آيات الله.. حل عليهم عقاب الموت.

وقد قال الله تعالى فى سورة البقرة الآية ٥٤ :وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

هكذا وصلهم الأمر.. اقتلوا أنفسكم.. وأمرهم موسى عليه السلام بأن يقفوا صفوفا وقال لهم من لم يعبد العجل عليه أن يقتل من عبده وحين بدأ التنفيذ كان الأمر شديد الصعوبة.. فكان المؤمن يجد شقيقه أو ابنه أو ابنته من عبدة العجل فلم يستطيعوا تنفيذ الأمر الإلهى.

فرحم الله سبحانه وتعالى المؤمنين منهم فأرسل عليهم ضبابا يسترهم ويلفهم حتى لايجدوا مشقة فى تنفيذ الحكم.. وقيل إنهم قتلوا من أنفسهم آلافا عديدة حتى أن موسى وهارون عليهما السلام عندما رأوا ماحدث صرخوا فيهم وطالبوهم أن يبكوا عسى أن يعفو عنهم الله.. وهما يتضرعان إلى الله أن يعفو عن الباقين على قيد الحياة ويغفر للذين قتلوا، فاستجاب الله لتضرع موسى وهارون.

وانتهت فتنة العجل بموت الكثيرين ممن فتنهم السامرى الذى كان يسعى للقوة والسلطة.. التى تذوقها لأيام معدودة وعرف معنى السلطان بعدما التف القوم من حوله حتى تلقى عقابه من الله سبحانه وتعالى بعد افتضاح أمره.. وأصبح منبوذا لايمكن لأحد الاقتراب منه أو أن يقترب منه أحد.. وعاد إلى البرية التى ولد فيها.